

الرسالة

مجلة أسبوعية للفكر والعلم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

نمن العدد ٣٠ ملياً

الاعلونات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
رئيس تحريرها السنول

أحمد حسن الزيات

الإدارة

مسالة بشارع السلطان حسين
٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٣٣٩٠

عدد ٦٥٩ « القاهرة في يوم الإثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

حمام الحرم

الأستاذ عباس محمود العقاد

—•••••—

أشرت في مقال السابق عن الرحلة الحجازية إلى حمام الحرم ، عن أعجب ما سمعته ورأيت من شأبه « إنه بطوف حول مبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات » .
« وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أرام ، فلما في طواف العمرة وطواف الوداع تحررت أن أتمقبه في كل ب من مذاهب مطاره فإذا هو كما سمعت بطوف ولا يتمدى ب إلى العبور » .

وهذه خاصة لا بد لها من سبب مفهوم ، ولا بد من استقصائها ليع أحوالها قبل التيقن منها وقبل تحليلها بالخوارق التي يل التعليل ، فإن الذهن لا يقبل الحارقة إلا إذا ضاقت به الطبايع التي أودعها الله في خلقه وتوارت بها المشاهدة في الأحوال ، وبخاصة حين لا يكون هناك مقتضى من حكم ، ولا حكم العادة لامتناع الطيران في فضاء الكعبة أو أى مقدس مصون ، ولا معابة على فضاء السماء في كل مكان تلق فيه الطيور أو تمر به الطائرات .

وقد شغلني أن أتيقن أولاً من تطابق الأقوال على اطراد

هذه الظاهرة ، وأن أجرب حماماً غير حمام الحرم لأرى كيف يطير إذا أطلق في جوانب الكعبة وحده ، وأن أجرب طيراً غير الحمام من القهاري أو المصافير أو فصائل الأيام ، لأن الجوارح قد يصرفها النظر إلى فرائدها عن تحقيق التجربة بما يفيد الحرية في اختيار جو الطيران ، وخطر لي قول الطائي :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتفتش منازل الكرماء
ولكن الطير يسقط حيث يلتقط الحب ولا يقصر طيرانه
على مواضع التقاطه ، فإذا كان حمام البيت قد تعود أن يلتقط غذاءه في الماشى التي حول الكعبة فليس ثمة ما يمنعه إذا صعد في الجوانب يتجاوز تلك الماشى إلى ما جاورها ، وهو قريب من قريب . ولو سميت بعض رفاقنا أن يرقبوا هذه الظاهرة في زياراتهم

المتعددة ، وهم يزورون البيت متفرقين حسب النوبة التي يفرغون فيها من العمل في اليخت أو في الطوافتين . فلما عادوا جميعاً كُفيت مؤنة التجربة أو التجارب الكثيرة التي كان لا بد لنا منها قبل التيقن من تلك الظاهرة وتحليلها بما يكشفها على جليتها ، لأن ثلاثة منهم اتفقوا على أنهم شاهدوا الحمام يطير أحياناً فوق الكعبة وإن لم يكن ذلك مطرداً في جميع الأوقات ، ومن شاهدوا ذلك إمام اليخت الملكي المحروسة وهو شاب مذهب أديب حسن المعرفة بالدين حسن التفسير لأحكامه وفروضه ، فانه قال إن الحمام يطير فوق الكعبة ولكنهم يلحظون فيما يطير منه عليها شيئاً من الضعف والانكسار ، كأنه مريض يلتبس

الحمام السوداء ، ويتوسلون بالأولى في استعطاف الملائكة والأرواح الكريمة ، وبالأخرى في استعطاف الشياطين والأرواح الخبيثة ، بل لا يزال أناس من المعاصرين يمتدنون في الحمام اعتقاد الأقدمين الذين زعموا أنه أقدر الطير على استجابة داعي العشق والغرام ، وأنه من ثم طعام صالح للأزواج وهدية سالحة في الأعراس والشعراء يضربون به المثل في الوفاء والفناء ، وبعضهم يسمو هديله بالبكاء لفرط الحنين إلى الالفاء والأحباء ، ويجارى الشعراء في هذا الرأي بعض من كتب عنه من الطبيعيين والشعوليين بتسجيل عادات الطيور .

أما الصواب فهو ما قاله المعري حيث قال :
أبكت تلك الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد
وهو أيضاً ما قاله حيث قال :
ظلم الحمامة في الدنيا وإن حُسبت

في الصالحات كظلم الصقر والبازي
ويؤيد المعري في هذه الملاحظة هواة الحمام من العرب ، وأشهرهم مشنن بن زهير حيث يقول فيما رواه عنه الجاحظ في كتاب الحيوان : « ... لم أر شيئاً قط في رجل وامرأة إلا وقد رأيت مثله في الذكر والأنثى من الحمام : رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها ، ورأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذكورة كالمرأة لا تمنع يد لاس ، ورأيت الحمامة لا تزيف إلا بعد طرد شديد وكثرة طلب ، ورأيتها تزيف لأول ذكر يريدها ساعة يقصد إليها ... ورأيت حمامة لها زوج وهي تمكن ذكراً آخر لا تعدوه ... ورأيتها تزيف لغير ذكرها وذكراها يراها ، ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور ورأيت الحمامة تقمط الحمامة ... » .

إلى آخر ما قال وهو صواب :

ولا ندرى هل ذم الحمام أو أثني عليه حين قال إنه يهيبه الناس في أطواره ذكوره وأناثه . فقد يكون ذلك غاية التمسك في عرف قوم وغاية التناء في عرف آخرين !

ولسنا ننجم هذا المقال قبل أن نستوفي سيرة الحمام كما عرضت

الشفاء ببركة العبور على ذلك المقام ، وهذا وحده يبطل ما ذهبوا إليه من تلك الملاحظة ... لأن طالب البركة لا يلتزمها بما يخالف حرمة المكان فيما جرى عليه عرفه أو عرف بداهته الفطرية ، فان كان طير البيت يتجنب الطيران فوق الكعبة تقديساً لها كما يتحيلون فليس من شأنه أن يلتزم البركة بما يخالف التقديس . وقد أصبحت الظاهرة معقولة بعد ما سمعته من تلك المشاهدات بغير خارقة أو التجاء إلى إغراب .

حتى ندرة الطيران فوق الكعبة لا تستعصى على التفسير الموافق للعادات والمشاهدات ، فان الحمام الأليف يجتمع إلى أسرابه في ملاقط الحب ، ولكنه لا يطير أسراباً أسراباً كالفصائل البرية من نوعه حين تهاجر من مكان إلى مكان . فإذا جاوز الحمام الأليف مساقط أسرابه فأنما يطير زوجين زوجين أو فرداً فرداً في التماس أليفه الذي يقبب عن نظره وسط الأسراب ، وهذه العادة خليفة بأن تفسر لنا ندرة الطيران على بعد من المائى التي يتجمع فيها الحمام كما تفسر لنا بطء حركة الطائر الذي يخرج على الطريق في بحثه واستطلاع ، لأنه لا ينوى الطيران إلى بعيد حيث يعبر فضاء الكعبة لينظر حوالها إلى أليفه المفقود .

على أن جمال المعنى الذي يتمثل في حمام الحرم لا ينقص ذرة بطيرانه هنا أو طيرانه هناك ، لأن معناه الجليل هو الأمن في حماية الإيمان لا في حماية الحراس أو حامية الأبراج والسدود . فهذا أضنف الطير يراه الجائع والطامع ولا يحسه بسوء ، وهو بطمن إلى هذا الأمن بطبعه وإن لم يفهمه ببقل فيه يفهم أمثال هذه الأمور ، فلا يحفل من الإنسان ولا تراه بطير منه إلا طيران الدلال واللب لا طيران الفزع والاضطراب .

ولم يزل للحمام نصيب من القداسة أو الطهارة منذ آمن الناس بالدين على سنة الوثنية أو سنة التوحيد ، وكان هذا النصيب يتفعه حيناً ويحجب عليه في أحيان ، فكان قربان الحمام مفضلاً في شريعة موسى على القرابين من سائر الطيور ، وكان الأغريق يتقربون إلى الزهرة ربة الحب عندهم بالحمام الأبيض أو بالليام وما إليه ، ولا يزال السحرة في أيامنا يمدعون السذج بالحمام البيضاء أو

في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب الأستاذ محمد إسماعيل النشاشيبي

— ٢٧ —

ج ١ ص ٢٦٨ : ومن شعر نبطويه :

الجد أنفع من عقل وتأديب إن الزمان ليس أتى بالأعاجيب
كم من أديب يزال الدهر يقصده بالنائبات ذوات الكره والحبوب
وامرى غير ذي دين ولا أدب معمّر بين تأهيل وترحيب
ما الرزق من حيلة يحتالها فطن لكنه من عطاء غير محسوب
وجاء في الشرح : (كم من أديب يزال الخ) لا يزال حذف
لا كما في كلام العرب أو هي يظل حرفت يزال والأول أوفق
لوروده كثيراً . (وامرى غير ذي دين الخ) . لا يستقيم الوزن
إلا إذا جعلت همزة امرى همزة قطع .

قلت : (كم من أديب يظل الدهر يقصده) يظل هي الرواية
(وجاهل غير ذي دين ولا أدب) و (لا) لا تحذف قياساً إلا
بعد قسم ، وقد شذ الحذف — كما قال ابن عقيل — دون القسم

كقول الشاعر :

وأبرح ما أدام الله قوى بحمد الله منتطقاً مجيداً^(١)

أي صاحب نطق (منطقة) وجواد .

وحذف هذا الثاني بعد القسم كثير بل أكثر من الكثير ،
وقد بينت المصنفات في علم العربية (أعني النحو^(٢)) وفي أسرار
العربية^(٣) ، وفي فقه اللغة وسنن العرب في كلامهم^(٤) ، وفي

(١) قلت : وشذ الحذف في قول عمرو ذي السكب من شعراء

هذيل (ج ١ ص ٢٣٣ الطبعة الأوربية) :

فأبرح غازياً أهدى رعيلاً أؤم سواد طود ذي مجال
وبيرح واحد واتسان صبي وروما في أضاءهم الرجال
وأبرح في طول الدهر حق أقيم نساء بمجسلة بالمال
(النجال) ما يستنجل من الأرض يخرج منها .

(٢) سيبويه ١ ص ٢٦٣ ، شرح الفصل ٧ ص ١٠٩ .

(٣) أسرار العربية للأبّاري ١١٠ .

(٤) الصاحي لابن فارس ١٢٥ ، فقه اللغة للشامي ٥٠٨ .

خلال الزيارة الحجازية إما بمكة أو خلال الطريق .

فقد كان الحمام ذات عشاء بعض صحاف المائدة على البخت
« المحروسه » أثناء عودته الأولى من جدة إلى السويس ، فعلنا
بن جلاله الملك عبد العزيز لا يأكل منه ولا من السمك على
اختلافه إلا في النادر القليل .

وأراد صاحب السعادة مراد عمن باشا أن يوفق بين رغبة
الملك عنه ورأى بعض الفقهاء في تحريمه ، فقال : إن أناساً من
التشددين يحرمون أكل الحمام الذي يربي في روج الحقول والفيضان
فصمت جلالة الملك وتردد ثم سأله : ولم يحرمونه ؟

قال مراد باشا : لأنهم يتركونه يأكل من مال غيرهم ولا
يطعمونه من عندهم ، فحرمه أولئك الفقهاء كما يحرمون مال
« الغير » المأخوذ بغير علم من أصحابه .

وكنا نحسب أن هذا التشدد مما يرتاح إليه فقهاء نجد لأن
الشيخ محمد بن عبد الوهاب منسوب إلى التشدد فيما يترخص
فيه عامة الفقهاء .

ولكن جلالة الملك ظل على ترده والتفت إلى أخيه صاحب
السمو عبد الله بن عبد الرحمن كمن يستفسر رأيه في هذا التحريم .
فقال سمو الأمير : لا حرج في أكله وما أرى وجهاً لتحريمه
ولا قولاً يعتد به في ذلك ، وإنما حكمه حكم المصايف التي تأوى
إلى أشجار الناس وتأكل من حيث أصابت الطعام .

فرفنا شيئاً جديداً من مذاهب أهل نجد في التحريم
والتحليل ، فهم لا يأخذون بكل تشديد ولا يعزفون عن
كل ترخيص ، وإن كانت لهم أقوال يخالفون بها جمهرة
التشددية والترخصين .

وأطرف من هذا أن رئيساً من رؤساء الحكومة السعودية
سأل الباشا : أهم يحرمون من الحمام « Pigeon » أو « Dove turtle » ؟
لأن الأول يأوى إلى البيوت والثاني قلما يأوى إليها وإن عرفت
الأمم القديمة استثناسه في بعض البلدان .

فكان هذا السؤال مما لم يخطر على البال ، قبل الاستدلال
على الحرام والحلال .

عباس محمود العقاد